مع النبى

أحاط بالنبى عليه السلام نخبة من كبار الرجال مختلفون فى الأعمار والأقدار، مختلفون فى البيئات والأحساب، مختلفون فى الأمزجة والأخلاق، مختلفون فى ملكات العقول وضروب الكفايات، مختلفون فى فهم الدين وبواعث الإسلام، فكان اختلافهم هذا آية من أصدق الآيات على رحابه الأفق وتعدد الجوانب فى نفس ذلك الرجل العظيم، وكان علمنا بكل رجل من أولئك الرجال مزيدا من العلم بعظمة هاديهم وسيدهم وموجة كل منهم فى وجهته التى هو أصلح لها وأقدر عليها، وهم يلتقون أول الأمر وآخره فى ذلك الينبوع الفياض من تلك الفطرة العلوية التى فطرها الله لهداية الأمم وقيادة الرجال، بل لقيادة القواد الذين يروضون الأمم والرجال..

وما من عظيم من هؤلاء العظماء إلا كان تقدير النبى إياه بقدره الصحيح آية على عرفانه الشامل بخصائص النفوس، وسبره المعيق لأغوار[1] الطبائع والأفكار، ولكن تقديره لخالد بن الوليد على التخصيص كان آية الآيات فى هذا الباب، لأنه عليه السلام لم يكبره إكبار السياسى الذى يستجمع القوة حواليه، وينزل كل زعيم منزلة قومه من الوفرة والعزة والجاه والعتاد، وإنما أكبره أقصى مستطاعه[2] قبل أن يظهر من مستطاعه كثير، وسماه "سيف الله" وبينه وبين الوقائع التى استحق بها ذلك اللقب الجليل بضع سنوات. بل سماه سيف الله وهو قافل[3] من معركة يلتقى المسلمون من عادوا منها بالنكير والتشهير[4]، ويحثون[5] فى وجوههم التراب ويصيحون بهم أينما وجدوهم: يا فرار! يا فرار!.. فررتم من سبيل الله!

---

(١) سبره لأغوار الطبائع: سبر الجرح: نظر فيه ليعرف ماغوره وعمقه.

(٢) مستطاعه: قدرته. (٣) قافل: راجع.

(٤) النكير: الاستنكار والملامة.

(٥) يحثون: حثا التراب فى وجهه: القاه.

لم يكبر النبى خالدا كما أكبر أبا سفيان تألفا[1] له ورعيا لمكانه فى قومه ولكنه أكبره للصفة التى سيوصف بها فى تاريخ الإسلام بعد اهتدائه إليه بضع سنوات..

أكبره لأنه "سيف من سيوف الله" والناس لا يرون إلا الهزيمة والارتداء، ولم يكن النبى موليه القيادة فى المعركة التى ارتد منها[2] بجيش المسلمين، فيقول قائل إنه ينصر قائده هو المسئول عن اختياره، وهو من ثم المسئول عن ارتداده أو فراره. ولكنه ولى آخرين وترك اختياره بعدهم لمشيئة إخوانه فى الجيش، فاختاروه بعد ذلك مجمعين.

كثير من رؤساء الأمم يعرفون موضع الإكليل[3] من رءوس القادة وهم منتصرون ظافرون، ولكنه موضع يخفى جد الخفاء على أنظار هؤلاء الكثيرين إذا لم يدلهم عليه ضياء النصر والظفر، ويبقى للعين الملهمة وحدها أن تراه فى ظلام المحنة والبلاء.

وقد صحب خالد النبى ثلاث سنوات، وعهد إليه النبى فى كثير من الأعمال الصغيرة، وأشركه فى بعض الأعمال الكبيرة: ومنها غزوة مؤته وغزوة حنين وسرية بنى جذيمة، فما من هذه الأعمال الكبيرة عمل واحد لم يتسع فيه المقال للشانئ[4] والحاسد ولم ينظر إليه الناظر من وجهين متعادلين، تارة إلى جانب العذر وتارة إلى جانب الملام، ولو أنه رضى الله عنه قضى نحبه فى السنة العاشرة للهجرة أو بعد ذلك بقليل لعجب المؤرخون كيف سمى "سيف الله" وفيم استحق هذا اللقب الذى لا يعلوه لقب فى الإسلام، ولكن النبى وحده قد عرف قبل الحادية عشر للهجرة أنه حقيق بذلك اللقب

---

(١) تألفا له: استمالة القبلة.
(٢) هى سرية مؤتة، وسيأتى تفصيلها.
(٣) الإكليل: شبه مصابة تزين بالجواهر، ويسمى التاج إكليلا.
(٤) الشانئ: المبغض الحاقد.

على أوفى مداه، وسماه به قبل أن يهزم المرتدين، وقبل أن يهزم الفرس والروم، وقبل أن يصون للإسلام جزيرة العرب ويضم إليها العراق والشام.. وهى الأعمال الجسام التى من أجلها يدعى اليوم سيف الإسلام..

وإنما هو البصر العلوى الذى يلمح هذه القدرة فى معدنها حيث ينظر الناس فيرون خالدا مرتدا من غزوة مؤتة أو مأخوذا مع الخيل وهى تولى فى أول المعركة من ميدان حنين، أو صانعا فى سرية بنى جذيمة ما يبرأ منها لنبى عليه الصلاة والسلام.

ولهذا ينبغى أن توزن هذه الأعمال بميزانها الصحيح لإقامة خالد نفسه فى مقامه الصحيح، فهى ولا ريب من المعدن الذى جمعت منه حروب الردة وفتوح العراق والشام.

١ - سرية مؤتة

وأول هذه الأعمال قد اشترك فيه متطوعا بعد إسلامه بشهرين أو ثلاثة أشهر، وهو سرية مؤتة التى سيرت إلى البقاء.

وكان سبب هذه الغزوة أن النبى عليه الصلاة والسلام أرسل وفدا إلى ذات الطلح بمقربة من الشام ليدعوهم إلى الإسلام، فقتلوا جميعا وعدتهم خمسة عشر إلا رئيسهم نجا من القتل وحده، ولعلهم أبقوا عليه عمدا ليخبر بما رآه، على ديدن المنكلين فى إبلاغ مثلاتهم[1] إلى من يهدأ بالتمثيل والتنكيل..

وأرسل عليه السلام الحارث بن عمير الأزدى رسولا إلى هرقل فقتله شر حبيل بن عمرو الغسانى وهو فى الطريق. فأشفق عليه السلام من عقبى السكوت[2] على كلتا الفعلتين وهو غير مأمون.. وعلم أن قبائل الجزيرة

(١) على ديدن: على عادة، والمثلات (يفتح الميم وضم الثاء) العقوبات.

(٢) عقبى: ساقبة.

العربيـة نفسهـا قد أذعنت للدعـوة الجديدة، ومنها المتـربص للغدر مـتى قدر نفسها قد أذعنت للدعوة الجديدة، ومها المتربص للغدر متى قدر عليه، أذعنت للدعوة الجديدة، ومنهـا المتربص للغدر متى قـدر عليه، والموهون الإيمان[1] الذى لا يصبـر على الإغراء والاستثـارة، فإذا استضـعف الغسانيون وجـيران الغسانيين شـأن النبى وأفلتوا من جرائر[2] فعلة كتلك الفعلة اللئـيمة جراهم ذلك عاجـلا على اقتحـام الصحراء الشـرقية للنقـمة[3] من المسلمين فـتهب القبائل لنصـرتهم فى طريقهم، وتمدهم الدولة الرومانيـة بالمال والسلاح تقريرا لهيبـتها فى عيـون أولئك البدر الذين جهلوا بأسـها ووهموا[4] أنهم قادرون عليها! إذ لا مطمع للدولة الرومانية فى مقـاتلة المسلمين وإخضاع الجزيرة بغير هذه الوسـيلة، ولا سبـيل إلى تسـيير الجنود الرومـانييـن بنظامهم المعـروف ومعداتهم الكثيرة لمنازلة المسلمين فى عقر دارهم من وراء المفاوز والنجود[5]، وتسيـيرهم بحرا إلى شـواطئ الحجاز عن الاسـتعانـة بأناس من العرب وأهل البادية، وهم أولى أن يستعينوا على هذا المطلب بأتـباعهم الأقدمين فى تخوم الشام.

فلم يجد عليه السلام مناصا من الثأر لأصحابه المقتولين، وجرد لتأديب جيشـا صغيرا لا تتـجاوز عدته ثلاثة آلاف، وكان فى ذلك الجـيش خالد بن الوليد ونخبـة من أقدم الصحابة عـهدا بالإسلام، فلم يتول خـالد قيادته لأنه كان على الأرجح أحـدثهم عهدا بالدخـول فيه، تولاها زيد بن حـارثة "فإن أصيب فالرئيس جـعفر بن أبى طالب، فإن أصيب فعبـد الله بن رواحة، فإن أصيب فـليرتض المسلمـون بينهم رجلا فليـجعلوا عليـهم" . . وأمرهم عـليه الصلاة والسلام أن يذهبوا إلى حيث قتل الرسـول فيدعوا القوم إلى الإسلام،

---

(١) الموهون الإيمان: الضعيف الإيمان. (٢) جرائر: جمع جريرة وهى الذنب.

(٣) النقمة: (يفتح النون وقد تكسر) الانتقام. (٤) وهموا: ظنوا.

(٥) المفاوز: جمع مفازة وهى الصحراء المهلكة، والنجود. وهو ما ارتفع من الأرض وصلب.

فإن أجابوا وإلا فـالقتال[1]، وأوصاهم: "ألا تغدروا ولا تغلوا[2] ولا تقتلوا وليدًا ولا امرأة ولا كبـيرا ولا فانيا[3] ولا معتزلا بصومـعة، ولا تقربوا فخلا ولا تقطعوا شجرا ولا تهدموا بناء".

ولاشك أن هذا الجيش إنما كان بالوصف العصرى "حـملة تأديبية وبعثة استطلاع" يـقاد على هذا الاعتـبار من أجل هذه الغـاية ولا يراد به بداهة أن يحطم قوة الدولة الرومانية أو يفتح البلاد التى كانت يومئذ فى يديها..

فمـضى لهذه الـوجهة حـتى نزل "معـان" وأقام بهـا ليلتين، وسـمع المسلمون هناك أن هرقـل قد عسكر بمآب فى مـائة ألف من الروم ومائة ألف من قبائل لخم وجذام والقين وبهراء وبلى على أهبة اللقاء.

وقد يقع فى الخاطر أن الروم علـموا بمسير جيش المسلمـين فأعدوا هذه الجحافل الجرارة ثم سيـروها إلى تخوم الدولة فى مدى الأيام التى مضت من خروج جيش المسلمين إلى بلوغهم أرض معان، وهو خاطر بعيد جد البعد لما هو معلوم من صعوبة جمع الجيوش وتسييرها فى مثل هذه السرعة، ولما يبدو من ضخامـة هذه الجحافل بالقياس إلى القـوة الإسلامية التى مهـدوا للقائها، ولم يكن ليفـوتهم أن يعملوا بحقـيقتـها لو أنهم تلقوا الخـبر بخروجـها ممن رآها..

والأرجح أن هرقل إنما كان فى جموعه هنالك فى زيارة الشكر التى نذر لله أن يؤديها إذا هو ظفـر بالفرس، ورد منهم صليب الكنيسـة الكبرى الذى حملوه معهم يوم فتحـوا بيت المقدس، وربما كان هرقل قد بارح بيت المقدس فى ذلك الحين وتخـلفت جيوش ركـابه لأداء هذه الفريضـة معه، أو للقـيام بمراسم الحفاوة فى تلك الزيارة التاريخية.

---

(١) أى (فان أجابوا فبها، وإن لم يجيبوا فالقتال).

(٢) لا تغلو: لا تخونوا فى المغانم.

(٣) الفانى: الشيخ الكبير الهرم.

ورأى المسلمون أن مدد الروم حاضر على مقربة منهم، وأن الحرب بين عسكرين على هذا التفاوت البعيد عسل غير مجد، ولم يكن منظورا ولا مقصودا عند مسير الجيش من المدينة، فرجع بعضهم وتمهل الأكثرون منهم ليستأذنوا النبى فيما يصنعون، وغلبت حماسة الشاعر وحمية الشهيد على عبد الله بن رواحة فاتنهر[1] المترددين والمثبطين وقال لهم: "يا قوم! والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون: الشهادة. وما تقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنين: إما ظهور[2] وإما شهادة!"..

فاستمعوا إليه ولم يشاءوا بأية حال أن يرجعوا قبل الانتهاء إلى مقصدهم الذى خرجوا من أجلله وهو إبلاغ الدعوة إلى قاتلى الرسول النبوى وإبراء الذمة إليهم قبل القصاص إن وجب قصاص فتقدموا من معان إلى مؤتة على مسيرة نحو ليلتين، وفيها حصن للغسانيين يقيم به أمير منهم فى خدمة الرومان.

واحتمى الأمير الغسانى منهم بحصنه ثلاثة أيام لعله كان ينتظر فيها مددا أو أمر من رؤسائه، ثم التقى الفريقان على مزرعة فى جوار البلدة، فاستمات من بقى من جيش المسلمين، وحاربوا على ما يظهر وهم مفاجأون، لأننا لم نسمع فى أخبار الواقعة بتوجيه الدعوة أو الإجابة ولأن قائدا منهم أعجل[3] عن طعامه ولم يذق القوت ساعات، فلما فوجئوا بالقتال لم تدع لهم المفاجأة من خطة الصمود للخطر والثبات فى وجهه المصاب الأكبر فى هذه الحالة وهو مصاب الذعر والدهشة والملاحظة بلا هوادة.

---

(١) انتهزهم: زجرهم.

(٢) الظهور: الانتصار والشهادة: الاستشهاد.

(٣) أعجل من طعامه: (بالبناء للمجهول) لم يتسع له الوقت لتناول الطعام.

وكأنما استحى القادة الثلاثة أن يرشحوا للموت ويرجعوا دونه ابتغاء النجاة، فقاتل زيد بن حارثة حتى قتل، وأحاط القوم بجعفر بن أبى طالب وهو يحمل اللواء ويثير من حوله نخوة المسلمين، فأنحوا[1] عليه بالضرب الدراك[2] حتى قطعت يمينه ثم قطعت شماله، ثم ضم اللواء إلى عضديه ولبث يناضل عنه إلى أن مات

ودعى ابن رواحة إلى الرئاسة فجاءه ابن عم له بعرق من لحم وقال له: شهد بهذا صلبك فإنك لقيت فى أيامك هذه ما لقيت، فأخذه من يده فانتهش منه نهشة[3]، ثم سمع الحطمة[4] فى ناحية المعترك فألقاه من يده وجرد سيفه وهو ينشد:

يا نفس إلا تقتلى تموتى هذا حمام الموت قد صليت[5]

وما تمنيت فقد أعطيت إن تفعلى فعلهما هديت

فطفن يصول بين الصفوف ويهدر بالشعر[6] حتى قتل والمعركة فى أشدها..

فما هى إلا لحظة حتى دبر المسلمون أمر الرئاسة بوحى البديهة ونور العقيدة وهداية الفداء التى تهدى إلى المصلحة الكبرى وتغفل كل مصلحة دونها. وإذا اللواء يأخذه فى تلك اللحظة ثابت بن أقرم من بنى العجلان، وينادى فى أصحابه: "يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل[7] منكم". قالوا: "أنت" قال: "لا. ما أنا بفاعل". فاتفقت الكلمة على خالد بن

---

(١) أنحى عليه: أقبل عليه. (٢) الضرب الدراك: المتلاحق المتواصل.

(٣) فى رواية (انتهس نهسة) بالسين، أى أخذ منه بفمه يسرا.

(٤) الحطمة: زحام الناس وتدافعهم. (٥) صليت: من (صلى النار) أى احترق.

(٦) يهدر بالشعر: يردد: مجلجلا.

(٧) اصطلحوا على رجل: اتفقوا على رجل ترضوئه.

الوليد فإذا هو يتولى القيادة فى حينها، ويصنع لساعته خير ما يصنع فى ذلك الحين

وخير ما يصنع فى ذلك الحين هو الارتداد المأمون.

وهو أصعب من النصر فى بعض المآزق. لأن النصر ميسور مع اجتماع العدة له واحتمال الشدة فيه. ولكن الارتداء المأمون غير ميسور لكل من يريده وهو فى أضعف الموقفين.. إلا أن تكون له خبرة بالقيادة تكافئ الرجحان فى قوة العدو الذى يرتد بين يديه.

وأول شىء ينبغى أن يحتاط به لارتداده هو أن يوقع روع عدوه أنه لا ينوى الارتداد بل ينوى الهجوم أو يقصد إلى الحيلة.

فصمد فى الميدان حتى المساء.

ثم بدل مواقف الجيش تحت الليل فنقل الميمنة إلى الميسرة، ونقل الميسرة إلى الميمنة، وجعل الساقة فى موضع المقدمة، والمقدمة فى موضع الساقة، ورصد من خلف الجيش طائفة يثيرون الغبار ويكثرون الجلبة عند طلوع الصباح. فلما طلع الصباح على الفريقين إذا بكل طائفة من طوائف الغسانين والروم ترى قبالتها وجوها غير الوجوه وأعلاما غير الأعلام، وإذا بالجلبة مع هذا الاختلاف فى الوجوه والأعلام توهم القوم أن مددا جديدا أقبل على جيش المسلمين، وكانوا قد ذاقوا منهم أمر المذاق بغير مدد وهم مفاجأون، فلما ذهب خالد يدافع القوم ويخاشى بجيشه[1] لم يتبعوه حذراً من الكمين وتوقعا للإحاطة بهم من ورائهم، وأبلى خالد فى هذه المدافعة والمخاشاة بلاء لم يبله قط فى غزواته الكبرى على كثرتها. فاندقت فى يده تسعة سيوف ولم تصبر معه إلا صفيحة يمانية[2]، وكان هذا التراجع المحمى بشجاعة المستميت

(١) يخاشى: من المخاشاة وهى المحاجزة. وفى رواية أخرى (يحاشى) أى ينحاز.

(٢) الصفيحة: السيف العريض.

غطاء صالحا للجيش الصغير فى مواجهة الجيش الكبير. فقفل إلى المدينة بسلام، وعرف خالد منذ ذلك اليوم بلقبه الذى أضفاه عليه النبى وهو سيف الله، وعاد الناس يقولون مع النبى إنهم الكرار بإذن الله وليسوا بالفرار[1]..

وقد سمعنا فى عصورنا هذه بالألقاب الكبار تصفى على القادة لأنهم نجحوا فى خطة ارتداد لا محيص منها. فتلك هى السنة النبوية تسبق النظم العصرية إلى تقدير البارع بقيمة النجاح فى ارتداده، كما تقدره بقيمة النجاح فى تقدمه وانتصاره. ولو أن خالدا ملكته فطرة المجازفة ولم تملكه فطرة القيادة البصيرة لساءت العقبة أيما سوء، وتعرضت الدعوة الإسلامية لمحنة لا نعرف مداها الآن. ولربما تعرضت لهذه المحنة من جانب الجزيرة العربية قبل أن تتعرض لها من جانب الروم والغسانيين. لأن الجيش قد خرج من المدينة تأديبا لأناس متصلفين قتلوا رسولا واحدا أو قتلوا وفدا لا تجاوز عدته خمسة عشر. فإذا تورط هذا الجيش فى الزحف حتى اصطلم كلته[2] ولم يعد منه أحد، فكيف يكون وقع هذا التأديب المعكوس فى نفوس البادية المتحفزة أو فى نفوس أهل مكة ولما تسلم مفاتيحها للمسلمين؟ إنه ليبعث السخرية والاستهانة من حيث أريدت له الهيبة والمنعة، وإنه ليثير من الفتن ومساوى الظنون ما يصعب استدراكه فى سنين

ولكن الجيش قد عاد وأبلى فى أعدائه، وتسامعت الجزيرة بعدد الجحافل الهر قليلة حسبتها مرصدة[3] له ولم تقدر على تمزيقه ولا أصابت منه غير أنثى عشر قتيلا منهم القادة الثلاثة الذين تدبوا للشهادة قبل خروجه، فالسرية إن قد نهضت بأماتنها، ووقع فى نفوس المسلمين من فرط الثقة ببأسهم أنها كانت قادرة على جهاد أعظم من جهادها، وثبات أطول من ثباتها. وهى

---

(١) روى أن الجيش حينما رجع أخذ بعض الناس يحثون عليه التراب، ويقولون: (يا فرار فى سبيل الله). فيقول رسول الله: ليسوا بالفرار، ولكنهم الكرار إن شاء الله.

(٢) أصطلم: أستوصل وأبيد. (٣) مرصدة: معدة ومجهزة.

مغالاة فى القوة والبأس خيـر من المغالاة فى الضعف والخور، ولا ضرر منها ما شفـعتها تلك البـصيرة[1] العلوية التى تضع الأمور فى نصـابها، وتصف النجاح بصفاته ولو بدا للناس فى ثياب الأخفاق..

٢ - بنو جذيمة

وقد أثنى النبى على خالد فى مهمة لم يندبه لها ولم يرشحه لها مرشح عير كفاءته واتفاق رأى المسلمين فيها

ولكنه لامه وبرئ من عمله حين أخطأ فى مهمة ندبه لها بعد فتح مكة، وهى السـرية التى قـادها بنى جـذيمـة ليكشف عن طويتـهم ويدعـوهم إلى الإسلام..

فبعد فـتح مكة توجهت عنايته عليه السلام التى تطهـير البوادى لمحيطة بها من عبـادة الأصنام، فأرسل السرايا التى قبـائلها لدعوتها والاستـيثاق من نياتهـا، ومنها سـرية خالد إلى بنى جـذيمة فى نحو ثلاثمـائة وخمـسين من المهاجرين والأنصار وبنى سليم.. أرسلهم دعاة ولم يأمرهم بقتال..

وكان بنو جذيمة "شر حى فى الجاهلية يسمون لعقه الدم، ومن قتلاهم الفاكـه بين المغيرة وأخـوه عما خـالد بن الوليد[2]، ووالد عبـد الرحمن ابن عوف، ومـالك بن الشـريد وإخوته الثـلاثة من بنى سليم فى موطـن واحد" وغير هؤلاء من قبائل شتى.

فلما أقبل عليهم خالد وعلموا أن بنى سليم مـعه لبسوا السلاح وركبوا للحرب وأبوا النزول. فسألهم: أمسلمـون أنتم؟ فقيل إن بعضهم أجابه نعم! وبعضهم أجابه: صبأنا! صبـأنا! أى تركنا عبادة الأصنام، ثم سألهم: فما بال

---

(١) مأشفعتها: أى (طالما شفعتها واقترنت بها).

(٢) أنهم كانوا قتلوا فى الجـاهلية اثنين من أعمام خالد والذى فى (الأغانى) أن القـبلتين هما الفاكه بن المغيرة عم خالد، والفاكه بن الوليد بن المغرة أخو خالد.

السلاح عليكم؟ قالوا: إن بيننا وبين قوم من العرب عداوة فخفنا أن تكونوهم فأخذنا السلاح! فناداهم: ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا: فصاح لهم بهم رجل منهم يقال له جحدم: ويلكم يا بنى جذيمة! إنه خالد، والله ما بعد السلاح إلى الإسار إلا ضرب الأعناق، والله لا أضع سلاحى أبدا. فما زالوا به حتى نزع سلاحه فيمن نزع، وتفرق الآخرون. فأمر خالد بهم فكتفوا وعرضهم على السيف[1]، فأطاعه فى قتلهم بنو سليم ومن معه الأعراب، وأنكر عليه الأنصار والمهاجرون أن يقتل أحدا غير مأمور من النبى عليه السلام بالقتال. ثم انتهى الخبر إلى النبى فرفع يديه إلى السماء وقال ثلاثا: "اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد" وبعث بعلى بن أبى طالب إلى بنى جذيمة فودى[2] دماءهم وما أصيب من أموالهم. . قيل إنه "كان يدى حتى ميلغة الكلب[3]" ويسألهم: أبقى دم أو مال لم يود لكم؟ فلما اكتفوا ورضوا فرق بينهم بقية المال "احتياطا لرسول الله".

وقد سأل رسول الله فتى من جذيمة انفلت إليه لينبئه نبأ خالد مت آله وذويه: خل أنكر عليه أحد! قال: معم. قد أنكر عليه رجل أصفر ربعة[4] ورجل طويل أحمر، فاشتدت مراجعتهما. وكان عمر بن الخطاب بمجلس رسول الله فقال: أما الأول يا رسول الله فابنى عبد الله. وأما الآخر فسألهم. . مولى أبى حذيفة. .

ويعزى إلى خالد أنه استند فى قتالهم إلى قول عبد الله بن حذافة: "إن رسول الله قد أمرك أن تقاتلهم لامتناعهم عن الإسلام".

وقد عم النكير على الحادث بين أجلاء الصحابة، من حضر منهم

---

(١) عرضهم على السيف: قتلهم به.

(٢) ودى دماءهم: دفع لهم الدية، وقد سبق تفسيرها.

(٣) الميغلة: الإناء الذى بلغ فيه الكلب، يكون عند أصحاب الغنم وأهل البادية.

(٤) ربعة: لا طويل ولا قصير.

السرية ومن لم يحضرها، واشتد عبد الرحمن بن عوف حتى رمى خالدا لقتل القوم عندا ليدرك ثار عميه اللذين قتلهما بنو جذيمة مع عوف أبى عبد الرحمن ورجل من بنى أمية. وقصة مقتلهم أنهم كانوا قد خرجوا تجار إلى اليمن ثم عادوا ومعهم مال رجل من بنى جذيمة قضى نحبه هناك يحملونه إلى ورثته وأهله. فأعترضهم جذمى فى رهط[1] من قبيلته يدعى خالد بن هشام، وزعم أنه وارص المال وأحق به من غيره. فمنعوه ينظرونه[2] أن يصلوا بالمال إلى أهل البيت. فغضب وقاتلهم بالرهط الذى معه فقتل عزفا والفاكه بين المغيرة، ثم عمد عبد الرحمن إلى خالد بن هشام هذا فقتله بثأر أبيه. وهمت قريش بغزو بنى جذيمة لولا أن مشى بعض العقلاء بينهم بالصلح فتصالحوا على الدية والمال

ومن الإسراف أن يظن بخالد بن الوليد أنه تعمد قتل أناس وهو يعلم أن دمهم حرام، ويتخذ من مهمة النبى ذريعة إلى شفاء ترة قديمة[3]. فأدنى من ذلك إلى القصد فى فهم الحقيقة أن نبحث عن دواعى اللبس ودوافع الطبع التى تدفع خالدا خاصة إلى مثل هذا التصرف، فإن كانت هذه الدواعى وهذه الدوافع قائمة مفهومة فهى تفسير لما حدث وفيها الكفاية، وإن لم تكن قائمة ولا مفهومة فهنالك ينفسح مجال الظنون والفروض لمن يشاء..

وقد كانت دواعى اللبس ودوافع الطبع قائمة مفهومة فى مقتلة بنى جذيمة. فإن البوادى كلها حول مكة كانت تزحر بالشر وتنحفز للوقيعة فى تلك الآونة بعد تسليم مكة. فلم تمض أيام على سرية خالد حتى كانت بطون هوازن وثقيف وجشهم وغيرها متجمعة فى العدة الكاملة والعديد الوافر لمباغتة النبى وجمعه، فإذا ارتاب خالد فى نيات طائفة من أهل البادية مشهورين بالشراسة والغدر وهم يلقونه بالسلاح فله فى ارتيابه وجه لا يخفى، وإذا

(١) جذمى: نسبة إلى جذيمة، والرهط، الجماعة.

(٢) ينظروه نه أن يصلوا: ستمهلونه إلى أن يصلوا. (٣) الترة: الثأر.

أضيف إلى ذلك تلجج[1] القوم فى إعلان إسلامهم والإفضاء بنياتهم فليس اللبس هنا بعازب عن بال المتوجس[2] فى أشباه ذلك المقام..

وقا. يغنى الشعر والقصص فى الكشف عن شعور القوم هذا ما ليس يعنيه التاريخ وتسلسل الرواية، فمن كلام أحمد الوهبين فى خطاب بنى جذيمة بن عامر يسوغ لنا أن نفهم أنهم لم يكونوا متفقين على الإسلام والمسالمة، وذلك إذ يقول:

دعونا إلى الإسلام والحق عامرًا

فما ذنبنا فى عامر إذ تولت[3]

وما ذنبنا فى عامر لا أبالهم

لئن سفهت أحلامهم ثم ضلت[4]

وقال أحد الجذيين:

فلا قومنا ينهون عنا غواتهم

ولا للداء من يوم الغميصاء ذاهب[5]

وفى قصة رواها محمد بن إسحاق بن يسار - وهو من الثقات - شواهد على إصرار بنى جذيمة وعنادهم إلى ما بعد الإسار والإنذار، وفحوى هذه القصة كما أثبتها صاحب كتاب الأغانى حيث ثقلت ببعض التصرف: "أن خالد بن الوليد كان جالسا عند النبى ﷺ فسئل عن غزوته بنى جذيمة

---

(١) تلجج: تردد. (٢) عازب عن البال: غائب عنه، والمتوجس هو المتخوف الحلو.

(٣) عامر: يعنى قبيلة عمر، ولذلك أعاد إليها ضمير المؤنث فقال: (إذ تولت). وسميت كذلك نسبة إلى جذيمة بن عامر بن عبد مناة، وقوله (تولت) أى أعرضت وخالفت.

(٤) لا أبا لهم: كانت العرب تقول (لا أب لك) فى موضع الحث والزجر. وقوله (سفهت أحلامهم) أى خفت عقولهم وطاشت.

(٥) الغواة: السفهاء، جمع (غوى)، والغميصاء: ما لبنى جذيمة قرب مكة.

فقال: إن أذن رسول الله ﷺ تحدثت. فقال: تحدث. فقال: لقيناهم بالغميصاء عند وجه الصبح فقاتلناهم حتى كاد وجه الشمس يغيب، فمنحنا الله أكتافهم[1] فتبعناهم نطلبهم فإذا بغلام له ذوائب[2] على فرس ذنوب[3] فى أخريات القوم، فبوأت له الرمح[4] فوضعته بين كتفيه، فقال: لا إله. فقبضت عنه الرمح، فقال: إلا اللات[5] أحسنت أو أساءت. فهمسته[6] همسة أذريته[7] وقيذا - أى مشرفا على الموت - ثم أخذته أسيرا فشددته وثاقا، ثم كلمته فلم يكلمنى واستخربته فلم يخبرنى، فلما كان ببعض الطريق رأى نسوة من بنى جذيمة يسوق بهن المسلمون. فقال أيا خالد! قلت: ما تشاء؟ قال: هل أنت واقفى على هؤلاء النسوة؟ فأتيت على أصحابى ففعلت وفيهن جارية تدعى حبيشة، فقال لها ناولينى يدك، فناولته يدها فى ثوبها. فقال: أسلمى حبيش، وقبل نفاد العينش، فقالت: وأنت حييت عشرا، وتسعًا وترا، وثمانيًا تترى[8].

قال: "وتناشدا الأشعار حتى قتل، وأقبلت الجارية ووضعت رأسه فى حجرها، وجعلت ترشفه وتبكى. . . " إلى آخر القصة فى الجزء السابع من الأغانى. وهى على ظهور الاختراع فى بعضها لا تخلو من دلالة على موقف بنى جذيمة من سرية خالد فإذا صح مع هذا أن خالدا تلقى من عبد الله بن حذافة السهمى أمر بقتال بنى جذيمة نقلا عن النبى عليه الصلاة والسلام فهو خليق أن يعتمد على الفتوى من أمثاله لحداثة إسلامه وقلة علمه بفقه الدين وأحكامه، وهى على أية حال رواية لا تغفل الإغفال فى صدد البحث عن أخبار هذه السرية. .

---

(١) فمنحنا الله أكتافهم: أى أنهم تركوا الحومة طلبا للنجاة.

(٢) ذوائب: جمع ذؤابة وهى شعر مقدمة الرأس. (٣) الذنوب: الفرس الوافر الذيل.

(٤) بوأت الرمح: هيأته وسددته. (٥) اللات: صنم كانوا يعبدونه فى الجاهلية.

(٦) همسته أخذته أخذا شديدا. (٧) أذريته: ألقيته على الأرض.

(٨) وترا: الوتر من العدد (يكسر أو فتحها) هو الفردى. و(تترى) أى متتابعة.

والجو كله بعد هذا وذاك - سواء فى البادية أو فى مكة - هو جو الحرب والريبة، وجو التربص والنفور، فلا عجب أن تختلف فيه النوازع[١] والآراء، وأن تستطار[٢] فيه دواعى الشر والنقمة، وأن يتطرق إليه اللبس وتتعذر فيه استبانه لوجه الصراح[٣].

وعند خالد دوافع الطبع إلى جانب دواعى اللبس واختلاط الآراء، وهى الدوافع التى قد تعد منها حداثة السن فى ذلك الحين. ومنها أنه تناول الموقف كما يتناوله القائد المطبوع على القتال فى الصحراء، ويحدث للقائد فى هذا الموقف كثيراً أن يفرق بين ضربين من التسليم: هما تسليم المراوغة والختل[٤] وتسليم الإذعان والنصيحة، ولاسيما تسليم العدو المتهم المتردد الذى يحيد عن الصراحة ويفند[٥] أناس منه مقال أناس آخرين ومن دوافع الطبع عند خالد تلك الصرامة التى ينشأ عليها كل من نشأ فى مثل بيئته من الجاهلية، وتلك الشدة التى تثيره إليها عصابه ويومئ[٦] إليها تفزعه فى نومه، ومشاركة إخوته فى عوارضها الموروثة على نحو من الأنحاء، وهى لا ريب تلك الشدة التى عناها عمر بن الخطاب حين قال: "إن فى سيف خالد لرهقا[٧]، وهو من أعرف الناس به وأقربهم إليه، وهى التى توقعها جحدم أخو بنى جذيمة حين صاح بقومه محذرا إياهم من إلقاء السلاح: ويلكم يا بنى جذيمة. إنه خالد!.. كأنها خليقة معهودة منه لا تحتاج إلى تأويل بعيد.

وتدرت فى تاريخ الحروب القديمة والحديثة حرب تدور على العقيدة الدينية أو الحمية الوطنية لا تحصى عليها فلتة من أشباه هذه الفلتات، ولا يقع فيها نذير السيف حيث ينبغى أن يقع بشير السلام.

---

(١) النوازع: الميول. (٢) تستطار: تستثار. (٣) الوجه الصراح: الرأى الواضح.
(٤) الختل: المادورة فى الحرب، والخداع. (٥) يفند مقاله: يخطئه ويكذبه.
(٦) يومئ عليها: يشير إليها ويدل عليها.
(٧) الرهق: السفه والطغيان.

ولا يبعد أن يكون خالد قد ورث من عمومته جفوة لبنى جذيمة فجنح له شعوره إلى سوء الظن بهم، وقلة الطمأنينة إليهم، من حيث لا يقصد الترة ولا يتعمد الانتقام.

فكل هذا أقرب إلى تعليل بطشته بالقوم من اتهامه بحمل أمانة النبى على دخل[1] وسوء نية وهو الرجل الذى حارب أصدقاؤه وأقرب الناس إليه على أبواب مكة، ولو ندحة عن[2] حربهم لو تعمد اجتنابها، أو كان قصاراه أن يتعلل باللسان ولا يرجع إلى صدق النبى فى إطاعة النبى عليه الصلاة والسلام ومهما يلمَ اللائمون أو يعذر العاذرون فى هذه الزلة فمقطع القول فيها بين المنصفين أنها خطأ وأن الإبقاء على خالد بعدها صواب. لأن صواب الإبقاء على خدمته بعد غزوة بنى جذيمة قد ظهر أيما ظهور فى حروب الردة وحروب الفرس والروم

وذلك مثل من تربية النبى عليه الصلاة والسلام لأفذاذ الرجال ويتجلى تمام هذا المثل بإعطاء الرجال فرص المراجعة والإصلاح فى أمر يشبه الأمر الذى أخطأوا فيه، وموقف قريب من الموقف الذى عرضهم للملامة، وهذا الذى توخاه[3] عليه الصلاة والسلام حين أرسل خالدا دون غيره إلى بنى المصطلق - وهم بنى جذيمة - ليستخبر له خبرهم ويتبين الحق فيما بلغه عن ارتدادهم، وكان الوليد بن عقبة قد أخبره أنهم ارتدوا عن الإسلام. فندب عليه الصلاة والسلام خالدا "وأمره أن يتثبت ولا يعجل. فانطلق حتى أتاهم ليلا فبعث عيونه فلما جاءوه أخبروه بأنهم متمسكون بالإسلام، وسمعوا أذانهم وصلاتهم، فلما أصبحوا أتاهم خالد فرأى ما يعجبه، فرجع إلى النبى ﷺ فأخبره".

---

(١) الدخل: (بفتح الخاء) الخدمة والمكر.

(٢) وله ندحة عن حربهم: الندحة: السعة، والمقصود أنه كان يستطيع أن يتجنب حربهم فلا يلومه لائم. (٣) توخاه: أراده وقصد إليه.

وهو مثل ينبئ عن كثير، وقد ينبئ فيما ينبئ أن خالدا لم يتعسف كل التعسف في شكله الأول ببنى جذيمة على اختلاف بيوتهم، لأن الشك فيهم ما زال يتكرر بعد ذلك بشهور، وما زال يدعو إلى تلقى الإشاعة عنهم وإيفاد الوفود إليهم مرتين للتمحيص والاستخبار.

٣ - غزوة حنين

ولم تمض أيام معدودات على مقتله بنى جذيمة حتى لمس خالد موضع الثقة من نفس النبى فى حادث من أكبر حوادث الإسلام، وهو غزوة حنين.

لمس هذه الثقة فى غزوة حنين مرتين: مرة فى إسناد قيادة الخيل إليه على طبيعة الجيش، ومرة فى سؤاله عنه وعنايته به بعد هزيمة الخيل مولية عند اشتباك الجمعين.

وحق خالد فى تلك الثقة إنما يستبين من عرض الغزوة كلها لجلاء الأسباب التى أوقعت الهزيمة الأولى بجيش المسلمين، ولا يد فيها لخالد من قريب أو بعيد. . بل لعلها توحى إلينا أن هزيمة خيله يومئذ إنما كانت كصد الأجسام للأجسام ضرورة مادية لا تخل فيها للعوامل النفسية، أمام جارفة من الجوارف القوية، تأخذ ما أمامها من إنسان أو حيوان ومن شجاع أو جبان.

فقد فتحت مكة والأعراب من حولها ثائرون محنقون، وعلموا يومئذ أنها الوقعة الفاصلة، وأنه لا مطمع بعدها فى مكافحة النبى إذا تطاولت الأيام، على قيام دينه فى البلد الحرام، وموطن الكعبة والأصنام. فاجتمعت قبائل همدان من هوازن وثقيف وجشم، ومشى بعضهم لبعض يقولون: "إن محمدا قد فرغ من قتال قومه ولا ناهية له عنا[1]. فلنغزه قبل أن يغزونا" واستنفروا[2] القبائل فلباهم من أقربائهم عدد كبير منهم سعد بن بكر الذين تربى بينهم النبى وهو رضيع.

---

(١) لا ناهية له هنا: ليس هناك ما ينهاه ويصيده عن غزونا.

(٢) استنفروا القبائل: حرضوها على القتال.

وتولى قيادتهم مالك بن عوف النصرى، وهو فتى جرئ فى نحو الثلاثين، يجمع إلى غطرسة الإمارة وحمية الفروسية حدة الشباب، ولدد[1] الخصومة والعناد. . فساق أموالهم نساءهم وأبناءهم، وأمرهم إذا رأوا المسلمين "أن يكسروا جفون[2] سيوفهم ثم يسدوا شدة رجل واحد". فإما فوز وإما فناء وصفت الخيل ثم الرجالة[3] المقاتلة ثم الإبل عليها النساء، ثم صفت الغنم، ثم صفت النعم[4] فى حراسة لئلا تقر والجيش مشتغل عنها.

وسأله دريد بن الصمة حكيم القوم: مالى أسمع رعاء البعير ونهاق[5] الحمير وبكاء الصغير؟ قال: أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم، فسخر دريد برأيه وقال له: رويعى ضأن والله![6] وهل يرد المنهزم شيء؟ إنها - أى الحرب - إن كانت لم لن ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فضحت فى أهلك ومالك، فرماه مالك بالخرف[7] ولج فى عناده، ولمح فى بنى هوازن ميلا إلى كلام دريد فجمح به غضبه العارم وأقسم: "لتطيعنى يا معشر هوازن أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهرى!"

فهى عزمة رجل مستميت لا يبالى ما يصنع بنفسه أو بقومه فى سبيل قهر المسلمين. .

ونمى الخبر إلى النبى فخرج فى ألفين من أهل مكة حديثى العهد

---

(١) اللدد، شدة الخصومة. قال تعالى (هو الد الخصام)

(٢) جفون السيوف: جمع جفن وهو الغمد.

(٣) الرجالة: جمع راجل، وهو عكس الفارس. (٤) النعم: واحد الأنعام وهى الإبل.

(٥) الرغاء: صوت ذوات الخف كالإبل، والنهاق - كالنهيق - صوت الحمير.

(٦) رويعى ضأن رويعى: تصغير (راعى) يريد أنه لا يخرج فى تفكيره عن تفكير راعى الماشية، كأنما يرميه بالحمق.

(٧) الخوف: (بفتحتين) فسادا لعقل من كبر السن.

بالإسلام وعشرة آلاف من أصحابه الذين قدموا معه من المدينة. وقيل إنهم كانوا جميعا ثمانية آلاف.

وأعوزه السلاح فاستعار من بعض المشركين دروعا فأعطوا ثلاثين وأربعين درعا - وقيل مائة درع - بما يكفيها من السلاح واستعار من ابن عمه نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ثلاثة آلاف رمح، فأعاره إياها وهو يقول: كأنى أنظر إلى رماحك هذه تقصف ظهر المشركين.

وأخرج خالد على طليعة الجيش فى مائة فارس من بنى سليم.

قال الحارث بن مالك: خرجنا مع رسول الله ونحن حديثو عهد بالجاهلية فسرنا معه إلى حنين، وكانت لكفار قريش ومن سواهم من العرب شجرة عظيمة خضراء يقال لها ذات أنواط، يأتونها كل سنة فيعقلون أسلحتهم عليها، ويذبحون عندها، ويعكفون عليها يومًا. فرأينا ونحن نسير مع رسول اله سدرة[1] خضراء عظيمة، فتنادينا من جنبات الطريق: يا رسول الله! اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال رسول الله: الله أكبر. قلتم - والذى بيده - كما قال قوم موسى لموسى "أجعل لنا إلها كما لهم آلهة!".

وكان فى الجيش كثير من أمثال هؤلاء المسلمين المحدثين، ومعهم فى ساقة الجيش جمع من المشركين بين رجال ونساء ينظرون ما يكون، وكان فيهم أبو سفيان الذى قال حين رأى بوادر الهزيمة: لا تنتهى هزيمتهم دون البحر!.. وفيهم كلدة بن الحنبل الذى صرخ شامتا متعجلا: ألا قد بطل السحر اليوم، وصرخ معه آخرون يقولون: اليوم ترجع العرب إلى دين آبائها..

وكان الغالب على جيش المسلمين فى خروجهم قلة الاكتراث بعدوهم، فقال أبو بكر الصديق: لن تغلب اليوم من قلة!.. ونسبت هذه الكلمة إلى

---

(١) السدرة: شجرة النبق.

عيره، ولكنها قيلت على التحقيق لما جاء فى القرآن الكريم: "إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تعن عنكم شيئا"

وتقدم الجيش حتى حضرت صلاة الظهر فجاء رجل فارس فقال: يا رسول الله!.. إنى انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبلا فإذا أنا بهوازن عن بكرة أبيهم بطعنهم[1] ونعمهم وشائهم اجتمعوا إلى حنين. فتبسم رسول الله وقال: تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله. ثم سأل: من يحرسنا الليلة؟.. قال أنس بن أبى مرثد: "أنا يا رسول الله. فأمره عليه الصلاة والسلام أن يستقبل الشعب[2] حتى يكون فى أعلاه، وقال له لا تغرن[3] من قبلك الليلة..

فلما أصبحوا سأل النبى هل أحسنتم فارسكم؟.. يعنى الحارس المستطلع. قالوا: يا رسول الله ما أحسنا. فجعل عليه الصلاة والسلام يصلى ويلفت إلى الشعب، حتى إذا قضى صلاته قال: أبشروا فقد جاءكم فارسكم!.. فجعل ينظر إلى خلال الشجر فى الشعب وإذا هو قد جاء حتى وقف وقال: إنى انطلقت حتى إذا كنت فى أعلى هذا الشعب حيث أمرنى رسول الله، فلما أصبحت طلعت الشعبين كليهما، فنظرت فلم أر أحدا، فسأله: هل نزلت الليلة؟ قال لا. إلا مصليا أو قاضى حاجة

وروى مسلم من حديث عكرمة بن عمار عن إياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه قال: "غزونا مع رسول الله حنينا، فلما واجهنا العدو تقدمت فأعلو ثنيه[4] فاستقبلنى رجل من المشركين فأرميه بسهم وتوارى عنى فما دريت ما صنع، ثم نظرت إلى الشوم فاذاهم قد طاموا من ثنية أخرى، فالتقوا هم وصحابة رسول الله، فولى أصحاب رسول الله، وأرجع منهزمًا"..

---

(١) الظعن: جمع ظعينة وهى الهودج.

(٢) الشعب (بكسر الشيين) انفراج بين الجبلين، وهو أيضا (الطريق).

(٣) لا تغرن: لا تؤخذ على غرة. (٤) الثنية: الطريق فى الجبل.

وحدث أبو عبد الرحمن الفهرى قال: "كما مع رسول الله فى حنين فسرنا فى يوم قائظ شديد الحر".

وروى محمد بن إسحق بسنده: "خرج مالك بن عوف بمن معه إلى حنين فسبق رسول الله إليها فأعدوا وتهيئوا فى مضايق الوادى وأحنائه[1] وأقبل رسول الله وأصحابه حتى انحط بهم[2] الوادى فى عماية الصبح[3]، فلما انحط الناس تارت فى وجوههم الخيل فشدت عليهم وانكفأ الناس[4] منهزمين لا يقبل أحد على أحد"..

وفى روايات شتى أن كمينا من المشركين فاجأ المسلمين من شعبة فى الوادى وقابلهم بنبل كأنه الجراد المنتشر، "وكانوا رماة... لا يكاد يسقط لهم سهم" فأدبرت الخيل وأدبر المقاتلة وراءها لا يلوون على شىء.

وتلك جملة الأخبار عن بدء المعركة جمعناها من مصادر متعددة، وأثبتنا بعضها بحروفها، ويتبين من المعارضة بينها أن الهزيمة انكشفت من الهجمة الأولى، لأن الخيل فوجئت فى الطليعة بالنبل المنتشر من الكمين المستتر، فولت منهزمة فى جفلة[5] حيوانية معروفة فى أشباه هذه المواقف، وقديما ذكر الرواة عن حرب الاسكندر وأمراء الهند أن جفلة الفيلة من الحديد المحمى كانت هى سبب الهزيمة التى أصيبت بها الهند فانقلبت الفيلة وبالا عليهم، وقضت وهى مولية على الكثيرين من فرسانهم ومشاتهم، تطأ بعضهم وتوقع الآخرين وتدفع من حاول الثبات إلى الفرار.. ولم تمض على حنين بضع سنوات حتى لقى الفرس من فيلتهم فى حرب المسلمين مثل هذا

---

(١) الاحناء: جمع حنو (بكسر الحاء) وهو منعرج الوادى أو جانبه.

(٢) انحط بهم الوادى: انحدر.

(٣) عماية الصبح: ظلامه قبل أن يتبين.

(٤) انكفأ الناس: ارتدوا.

(٥) جفلة: اسم المرة من جفل، تقول (أجفل القوم) إذا هربوا مسرعين منزعجين.

المصرع، ومثل هذه الجفلة الحيوانية، يوم تعمدها المسلمون بالضرب فى الأعين والخياشيم.

وقد حدث مثل هذا مرة أخرى فى وقعة خنين هذه حين حاول المسلمون أن يكروا بعد الفرار "فصار الرجل يلوى بعيره[1] فلا يقدر على ذلك لكثرة الأعراب المنهزمين، فيأخذ درعه فيقذفها فى عنقه، ويأخذ سيفه وترسه ويقتحم عن بعيره فيقذفها فى عنقه، ويأخذ سيفه وترسه ويقتحم عن بعيره ويخلى سبيله ويؤم الصوت"[2].

وهكذا بدأت الهزيمة بفرار الخيل ولحاق المشاة بهم واختلاط الحابل بالنابل[3] بعد ذلك من الفريقين، وتواتر القول أن الطلقاء الحديثين[4] فى الإسلام أدبروا منهزمين عمدًا بعد الهجمة الأولى، فأشاعوا الهزيمة فيمن معهم من المهاجرين والأنصار.

ولقد أوشك أهل مكة أن يستقبلوا الأعراب المتقدمين على رضا من بعضهم لحنينهم إلى الدين القديم، وعلى كره من بعضهم لأنفتهم من غلبه الأعراب على قريش، لولا أن تغير مجرى القتال ودارت الدائرة على المشركين بعد لحظات، وكان الفضل فى ذلك لحركة جاءت من قبل المسلمين، وحركة جاءت من معسكر الأعراب، وكان مجيئهما فى الموعد المقدور..

فأما الحركة التى جاءت من قبل المسلمين فهى بروز النبى عليه الصلاة والسلام بشخصه الكريم إلى مقدمة الصفوف. فقد ثبت فى ذلك الهول

---

(١) فى سيرة ابن هشام (فيذهب الرجل ليثنى بعيره) أى يحول وجهته ليعود إلى المعركة.

(٢) يؤم الصوت: أى يهتدى بصوت القتال "حتى ينتهى إلى حيث رسول الله.

(٣) مثل يضرب للاضطراب، والفوضى، أى وقع الاضطراب فيما بينهم بعرف الصائد بالحبال من الصائد بالنبال.

(٤) الطلقاء: أهل مكة الذين دخلوا الإسلام حديثا بعد الفتح، يشير إلى قوله الرسول لهم (اذهبوا فأنتم الطلقاء) أى المعفو عنهم.

الجارف ثبوتا يجل عن الوصف، وأخذ زمام المعركة كلها فى يديه ليمضى وحده فى القتال كيفما تصير الأمور.

وكان قد شهد المعركة على بغلته دلدل أو الشهباء، فانحاز إلى اليمين سريعا ليستطيع التقدم بين تلك الصفوف المتدفقة من مدبرين ومقبلين، والتفت إلى اليمين ونادى: يا معشر الأنصار!.. ثم التفت إلى اليسار ونادى كذلك يا معشر الأنصار!.. فتسامعوا وتجاوبوا وعطفوا - كما وصفهم شاهدو الموقف - عطفه الإبل على أولادها، واجتمع معهم حول رسول الله مئات فى لمحة عين.

وتختلف الروايات فى وصف هذه الحركة المجيدة من بدايتها، فيقول بعضها إن الناس أدبروا يومئذ عن رسول الله حتى بقى وحده، ويقول بعضها: بل بقى معه نفر قليل منهم أبو بكر وعمر وعلى والعباس وابنه الفضل وأبو سفيان بن الحارث وربيعة بن الحارث ومعتب بن أبى لهب وعبد الله بن مسعود وقليلون لا يتجاوزون الاثنى عشر. وجعل رسول الله يقول:

أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب

ثم أمر عمه العباس أن يصرخ فى الجيش: يا معشر الأنصار!.. يا أهل السمرة[1]! يا أصحاب سورة البقرة! يا بنى الخزرج!.. وكان العباس رضى الله عنه جهير الصوت يسمع صوته على مسافات بعيدة.. وقيل إنه كان يقف على سلع[2] وينادى غلمانه بالغابة فيسمعونه وبينه وبينهم ثمانية أميال..

فلما جلجل صوته بهذا النداء إذ بالأنصار والمهاجرين يتجاوبون: يا لبيك يا لبيك! ويسرعون إلى ناحية الصوت زرافات زرافات، حتى تجمع منهم

---

(١) السمرة: ضرب من الشجر، وهى الشجرة التى نمت تحتها بيعة الرضوان، فتكلفة يناديهم، يا من بايعتم رسول الله.

(١) سلع: جبل فى المدينة.

ثلاثمائة أو يزيد فى لحظات، ثم شاعت بين الألوف المؤلفة قدوة الكر والإقبال بعد الفر والإدبار، فإذا بالجيش بقضه وقضيضه[1] يعدو إلى ساحة القتال ويرسل الخيل والمطايا ليملك كل منهم زمام يديه وقدميه. وهانت النفوس حتى استهدفت[2] النساء للموت غير مباليات، ومنهن من لم تكن على صحة فى النظر كالمعصياء أم أنس بن مالك[3] وكانت هى حامل تحزم وسطها ببرد لها وفى حزامها الخنجر لدفاع يجترئ عليها..

وكان خالد بن الوليد قد ثنى عنان فريه بعد التوائه الهجمة الأولى، فلم يزل يقاتل حتى سقط مثنقلا بالجراح لا يقوى على السير من مؤخرة رحله[4]، وهناك وجد النبى ﷺ حين خرج يتفقد الجرحى بعد المعركة فبارك له وواساه.

أما الحركة التى جاءت من قبل المشركين فأعانت على هزيمتهم فذاك أنهم قد غرنهم طلائع النصر فأقبلوا على الغنائم والأسلاب وشغل الكثيرون منهم بالتقاطها واستلابها عن مطاردة المدبرين. فاتفقت الحركتان فى وقت واحد لتحويل وجهة القتال.

ويتبين من مقدمات المعركة كلها ومن بوادرها التى أجملناها أن الهزيمة فيما بعد الهجمة الأولى كانت ضرورة مادية لا محيد عنها[5]، وأنها ضرورة لم يكن لخالد يد فيها ولا طاقة باتقائها[6]، لأن أسباب كلها كانت من وراء تدبيره ومشيئته[7] وهى كثيرة تجملها ما وسعنا الأجمال.

---

(١) بقضه وقضيضه: جمعيه. (٢) استهدفت: تعرضت.

(٣) فى سيرة ابن هشام (الرميصاء) من قولك (مصت العين) إذا أخرجت القذى.

(٤) مؤخرة الرحل: الرحل، ما يوضع على البعير للركوب، ومؤخرة الرحل الجزء الذى يستند إليه الراكب فى آخره.

(٥) لا محيد عنها: لا مفر منها. (٦) لا طاقة باتقائها، لا قدرة على تحاشيها.

(٧) أكانت من وعاء تدبيره، ومشيته: كانت بعيدة عن تديره ومشيته.

فمنها أن الروح التى غلبت على جيش المسلمين فى بداية المعركة كانت روح استهانة قلة اكتراث، وأن الروح التى غلبت على روح المشركين يومئذ كانت روح استماتة وعناد، مع تقارب العدد بين الجيشين.

وربما كانت رجحت كفة المشركين فى الدروع والسلاح لما تقدم من حاجة النبى عليه الصلاة والسلام إلى استعارة بعض الدروع والرماح.

"ومنها" أن جيش المسلمين كان فيه كثير من الطلقاء، قد يبلغون الألفين وقد يزيدون، وكانوا على دخل أو على ضعف يبيتون النية على خذلان النبى. فخذلوه وتبعهم الناس.

"ومنها" أن جيش المشركين سبق المسلمين إلى مواقفه فاختار وأحسن الاختيار، وهجم فى الوقت الذى ارتضاه.

"ومنها" أن المسلمين كانوا يواجهون الشمس عند الصباح واليوم قائظ لا تقوى فيه العيون على مواجهة شعاعها فحيل بينهم وبين التثبت والإحكام فى مطلع الصباح إلى أن استوت الشمس فى كبد السماء.

"ومنها" أن استطلاع المسلمين لم يكن على عادته من البراعة والتيقن والإسراع. فقد أبطأ الفارس المستطلع حتى التمسه النبى عليه الصلاة والسلام مرات. ثم جاء ولم يخبر بشىء، ثم ظهر الكمين المرهوب من حيث لا يرونه، فأوقع بالخيل وهى لا تحسب له أى حساب، وهذا مع مهارة المشركين فى الرماية حتى قيل إنهم لا يسقط لهم سهم[1]..

"ومنها" أن بنى سليم أصحاب الخيل التى تولاها خالد كانوا على قرابة من هوازن، وعز عليهم أن يلاحقهم المسلمون بعد استدارة مع هذا ضعفا الإسلام، فسبقوا إلى الردة بعد موت النبى عليه الصلاة والسلام، وما زالوا فى موضع الظنة[2] بعد ذلك على عهد الخلفاء.

---

(١) لا يمقط لهم سهم، لا يطيش لهم سهم. (٢) الظنة: الشك.

فتقدير النبى عليه الصلاة والسلام لخالد بن الوليد إنما هو لتقدير الصحيح لأعمال السرايا والجيوش فى مؤته وبنى جذيمة وحنين، وكأنما هو تقويم الجوهرى الخبير للجوهر النفيس فى معدنه الخفى غير مصنوع ولا مصقول، وللتاريخ من بعده تقويم الجوهر بما يصفى عليه من جمال الصوغ والضياء.

ونعود هنا فنقول: إن تقدير النبى عليه السلام خالد بن الوليد لم يكن تقدير المجاملة لمكانه أو لما يرجى من قومه الأقوياء بنى مخزوم، فإنه عليه السلام لم يجاملنه فى وصفه الذى طابقته حوادث الأيام، ولم يجاملنه حين قدم عليه فى القيادة ثلاثة من السابقين فى الإسلام وترك اختياره بعدهم لاتفاق كلمة المسلمين، بل لم يجامله حين خاصم عبد الرحمن بن عوف فغضب النبى عليه السلام وقال له معرضا: "يا خالد! ذر أصحابى. لو كان لك أحد ذهبا فأنفقته قيراطا قيراطا فى سبيل الله لم تدرك غدوة أو روحة من غدوات أو روحات عبد الرحمن".

إنما هو سيد السادة ومربى الرجال والأبطال، يقوم الأعمال بقيمتها، وينزل العظماء فى منازلهم، ولا يمنعه أداء المجاملة أن يجامل بمقدار على حسب السوابق والأقدار.

وقد تولى خالد النبى أعمالا أخرى فى سنوات صحبه الثلاث، ولكن الأعمال التى اخترناها هى أكبر أعماله فى حياته عليه السلام، وهى أقرب الأعمال إلى وزن كفايته وتقويم معدنه وتمييز خلقه، ولكنه أريد لكل عمل صغير كما أريد لكل عمل كبير، وكانت للنبى عليه الصلاة والسلام نظرة فى كل مهمة مقدورة ندبه إليها..

فمن مهامه الصغيرة تسييره فى ثلاثين فارسا لهدم "العزى" بعد فتح مكة ببضعة أيام، وهى الصنم الذى كان أبوه يتمسح به وينحر له الإبل والغنم، وكان سدنته من بطون بنى سليم الذين قاتلوا مع خالد فى مقاوم

شتى[1]. وقد كان معبود القبائل التى لقيها المسلمون فى يوم حنين، وأثله ثلاث شجرات بأرض نخلة يزعمون أن ربهم كان يشتو بها لحر تهامة ويصيف باللات عند الطائف لبردها... وظلت مخوفة إلى ما بعد الإسلام. فيقول الكلبى[2]: "إن اللات والعزى ومناة لكل منها شيطانة تكلمهم[3] وتراءى للسدنة من صنيع إبليس وآمره" وهى التى أرجف من أرجف من المشركين أن القرآن الكريم يرتضيها ويساومهم على عبادتها ويجعلون منه قولهم: "اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى. تلك الغرانيق العلا. وإن شفاعتهن لترتضى[4].

فهى مهمة مخوفة من وجهتها النفسية وإن سهلت من الوجهة الحربية، فخرج خالد حتى انتهى إليها فهدمها، وجاءت فى بعض الأقاويل أنه: "لما انتهى إليها جرد سيفه فخرجت إليه امرأة سوداء عريانة ناشرة شعرها، فجعل السادن يصيح بها:

"أعزى" إذا لم تقتلى المرء خالداً فبوئى بإثم عاجل أو تنصرى

فأخذ خالد "اقشعرار فى ظهره" وشربها بالسيف فشقها. ثم لقى النبى فقال له: الحمد الذى أكرمنا بك، وأنقذنا بك من الهلكة. لقد كنت أرى أبى يأتى العزى بخير ماله من الإبل والغنم فيذبحها للعزى، ويقيم عندها ثلاثا ثن ينصرف إلينا مسرورا، ونظرت إلى ما مات عليه أبى، وإلى ذلك الرأى الذى كان يعاش فى فضله، وكيف خدع حتى صار يذبح لما لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع" فقال عليه السلام: "إن هذا الأمر إلى الله، فمن يسره للهدى تيسر له، ومن يسره للضلالة كان فيها"..

---

(١) مقام: معارك. (٢) الكلبى: صاحب كتاب (الأصنام). (٣) تراضى: تتزاءى وتظهر.
(٤) الآيات الكريمة تنتهى عند كلمة (الأخرى) وقد زعم المرجفون كذبا أن رسول الله تلا بعها (تلك الغرانيق.. الخ، وبذلك امتدح آلهتهم.. وهو زعم مكذوب.

وكذلك بلغت العبرة إلى خالد قبل أن تبلغ منه إلى الناس.

ومن المهام التى تدب لها فى حياة النبى مهمة يمتزج بها الشك بالأمل، والرفق بالشدة، والترغيب بالترهيب، لأنها بعثة إلى أناس غلابين مجتمعى الرأى، أولى عصبة وبأس وحنكة[1]، ولهم سمة يخالفون بها سمة[2] العرب فى معظم أنحاء الجزيرة، وهم بنو الحارث بن كعب بنجران.

أرسله إليهم وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام ثلاثة أيام، فإن استجابوا قبل منهم وإن لم يفعلوا فله أن يقاتلهم، فخرج إليهم وبعث الركبان فيهم يبشرون بالدين الجديد ويبصرونهم بفضائله وأحكامه، فاستجابوا له ودخلوا فيما دعوا إليه.

وأقبل وفد من عظمائهم على النبى - بأمره علية السلام - فقال حين رآهم: من هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال الهند؟.. قيل يا رسول الله: هؤلاء رجال بنى الحارث بن كعب. ثم سلموا ونطقوا بالشهادتين، فقال لهم عليه السلام: أتتم الدين إذا زجروا واستقدموا؟[3] وأعداها ثلاثا وهم لا يجيبون. فلما أعادها الرابعة قال زعيمهم يزيد بن عبد المدان، وفيه شوس وخيلاء[4]: نعم يا رسول الله!.. نحن الذين إذا زجروا استدقموا، وكررها أربعًا. فقال النبى: لون أن خالدا لم يكتب لى أنكم أسلمتهم ولم تقاتلوا لألقيت رءوسكم تحت أقدامكم. فانطلق ابن عبد المدان يقول: أما والله ما حمدناك ولا حمدنا خالد. قال: فمن حمدتم؟.. قالوا: حمدنا الله عز وجل الذى هدانا بك يا رسول الله!.

---

(١) أولى عصية: أصحاب منعة: أصحاب متعة وعدد كثير، والحنكة: التجربة والخبرة.

(٢) السمة: الشارة والصفة والعلامة.

(٣) إذا زجروا استقدموا: إذا زجرهم زاجر شجعانا، وفيهم إقدام.

(٤) الشوس والخيلاء: التفكير والعجرفة.

قال: صدقتم. ثم سألهم: بم كنتم من قاتلكم فى الجاهلية. قالوا متغضبين: لم نكن نغلب أحدا. قال: بلى! كنتم تغلبون من قاتلكم. فعادوا يقولون: "كنا نغلب من قاتلنا يا رسول الله أنا كنا نجتمع ولا تتفرق، ولا نبدأ أحدًا بظلم".

قال: صدقتم، وقفلوا إلى ديارهم فأرسل إليهم عمرو بن حزم يفقههم فى الدين ويعلمهم السنة ومعالم الإسلام، ويأخذ منهم الصدقات.

وقد شهد خالد مع النبى عليه السلام غزوتين لم يجر فيهما لقاءه واشتباك، وهما غزوة الطائف وغزوة تبوك

وكانت غزوة الطائف تنمه لوقعة حنين، لاذت بها[1] القبائل بعد فرارها وامتنعت وراء أسوارها، وجمعت من الميرة[2] ما يكفيها إلى السنة القابلة، فأحاط المسلمون بالأسوار فرماهم المشركون بالنبل كأنهم أسراب الطير، وقتلها وجرحوا وهم متمكنون فى أسوارهم، فبرز خالد لهم يدعوهم إلى النزال ولا يجيبه أحد. ثم صاح به عبد ياليل عظيم ثقيف: "لا ينزل منا أحد ولكن نقيم فى حصننا فان فيه من الطعام ما يكفينا سنين، ولكن يقيم فى حصننا فإن فيه من الطعام ما يكفينا سنين، فإن أقمت حتى يفنى هذا الطعام خرجنا إليك بأسيافنا جميعا حتى نموت عن آخرنا"..

فضربهم المسلمون بالمنجنيق، وتقدم نفر من الصحابة تحت دبابتين من جلود البقر يفتحون ثغرة فى الحصن. فأرسل عليهم المشركون سكك الحديد[3] المحماة فأحرقت الدبابتين وصدتهم عن السور

وأمر عليه الصلاة والسلام بكرومهم ونخيلهم فقطعت وهم يصيحون: دعها لله والرحم[4]! فقال عليه السلام: أدعها لله والرحم، واستشار نوفل

---

(١) لاذت بها: أى بالطائف: أى لجأت إليها. (٢) الميرة: الطعام.

(٣) السكك: جمع سمة، وهى حديدة المحراث التى يحرث بها. (٤) الرحم: القرابة.

ابن معاوية الديلى فى أمرهم فأجابه: "يا رسول الله! ثعلب فى حجر، إن أقمت أخذته، وإن تركته لم يضرك"

وفى الطريق قسم النبى غنائم حين قسمة لم ترض أناسا، فغضب رجل من المنافقين وصاح فى حضرته: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله! فاحمر وجهه عليه السلام غضبا وقال له: ويحك!.. من يعدل إذا لم أعدل؟ ووثب خالد وعمر يستأذنه فى ضرب عنقه، فأبى وقال: لا.. لعله أن يكون يصلى. فقال خالد: وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس فى قلبه!... فعار النبى ويقول: إنى لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس، ولا أشق عن بطونهم..

أما غزوة تبوك فقد خرج لها النبى عليه السلام إلى حدود الروم سنة تسع للهجرة فى أعظم جيش شهده المسلمون فى حياته. ومن ثم أمر خالدا أن يذهب إلى دومة الجندل[1] ليأتيه بالأكيدر أميرها، لأنه كان فى وسك الطريق بين الحجاز والعراق والشام عينا للروم[2] وحربا للقوافل، يدين للقسطنطينية بالعقيدة وبالطاعة. ومن خبرة النبى عليه السلام بالقبائل وأحوالها والأمراء أنه قال لخالد: ستجده يصيد البقر.. فكان كما قال..

وقد ذهب خالد إلى الدومة فى أربعمائة وعشرين فارسًا، فاقتحم الحصن واضطر من فيه إلى التسليم ومنهم الأمير، وجاء به إلى المدينة فصالحه النبى على الجزية وعاهده على الأمان

وثم بعثة من غير الباب ثدب لها خالد ولم يندب لمثلها قد فى عهد النبى ولا عهود خلفائه، وتلك بعثته إلى بنى مراد وزبيد ومذحج باليمن يدعوهم إلى الكتاب ويعلمهم شريعته وأحكامه.

---

(١) دومة الجندل: حصن بين المدينة والشام، أقرب إلى الشام.

(٢) العين: الجاسوس.

قيل إنه مكث فيهم شهرًا يدعوهم فلا يجيبونه، وأنه عليه السلام بعث بعده على بن أبى طالب وأمره أن يقفل خالدا ومن معه فإن أراد أحد أن يعقب معه تركه.

ولا غرابة عندنا فى هذا الذى حدث - إن كان قد حدث على الوجه الذى ذكره الرواة - فإن خالدًا لم يسمع من القرآن ولا من فقه الدين كما سمع الصحابة ممن عاشوا النبى سنين بعد سنين، وإنما هى سنوات قلائل لم يفرغ فيها إلا بضعة أشهر من الغزوات والبعوث. وقد أم الناس بالحيرة - فى خلافة الصديق - فقرأ من سور شتى، ثم سلم والتفت إلى الناس معتذرا يقول: شغلنى الجهاد عن كثير من قراءة القرآن!..

ويجوز أن النبى عليه السلام أرسله فى هذه البعثة ليدربه على الدعوة، وليفرغ بعض وقته للمدارسة والمذاكرة بهداية من معه من فقهاء الصحابة، ويجوز أنه عليه السلام تعمد أن يرصده للبطل المشهور عمرو بن معد يكرب - فارس زبيد - ندا له يكف من غربه[1] ويلزمه التدبر فى عاقبة نكثة وانتقاضه[2].

وفى تواريخ البعثة اضطرابه قد يشكك القارئ فى بعض وقائعها وأغراضها، فيجوز أيضا أن البعثة وفقت بعض التوفيق أو كل التوفيق، وأن الرواة قد فاتهم فى هذا الصدد شىء كثيرًا أو قليل من التحقيق

لكنها كائنا ما كان مصيرها ومصير عشر من أمثالها - لو تدب إلى عشر من أمثالها - لتسقطن من سيرة خالد ويبقين له ما هو حسبه[3] من البطولة وصدق البلاء. وليكون نبها أو بغيرها خطيبًا يبين من منبر التاريخ، وإن لم يحمله قط منبر التعليم.

---

(١) يكف من غربه: الغرب: الحدة والتمادى فى الأمر، يعنى أن خالدا كان كفنا لعمرو، ويستطيع أن يحد من تماديه ومخالقته.

(٢) انتقاضة: خروجته على الأمر ومخالفته. (٣) ما هو حسبه: ما يكفيه.